الجغرافيا على
مر العصور

الفصل الأول

جغرافية
ما قبل الإغريق

obeikandl.com

obeikandl.com

منذ وُجد الإنسان علي سطح الأرض وهو يحاول معرفة خصائص المكان الذي يعيش فيه، هذا المكان الذي تدرج مداه من مجرد الموطن المباشر وما يعلوه من سماء زاخرة بالأجرام السماوية، إلي المناطق المجاورة، فالكرة الأرضية ككل ثم الكواكب الأخرى والكون الفسيح، والسبب في ذلك هو غريزة «حب الاستطلاع curiosity» الكامنة في النفس البشرية، التي ترنو دائما إلى معرفة المجهول، وقد كانت تلك الغريزة هي الأساس الأول لنشأة الفكر الجغرافي، وذلك عندما أخذ الإنسان في إعمال فكره فيما حوله من ظاهرات طبيعية وكونية، أو في إدراك اختلاف المظاهر من مكان إلي آخر أثناء تجواله وترحاله فيما حول مكان إقامته من مناطق، وقد نشأ هذا الفكر عندما حاول الإنسان تفسير هذه الظاهرات والمظاهر في ضوء معرفته المحدودة وقتذاك.

وعندما وجد الإنسان نفسه ـ منذ قدر له أن يعيش علي الأرض ـ محصوراً في عالم محدود محاط بفضاء مطلق، وبظاهرات طبيعية غير قابلة للتفسير لصعوبة فهمها، كان لابد له كي يفسّر سرّ وجوده في الحياة أن يوجد بفكره وشعوره عالماً تقترب فيه الأشياء المعلومة من الأشياء المجهولة وتتعانق في وحدة من العلاقات.

وكما أدرك الإنسان مبكراً أن هناك علاقة ما تربطه بعناصر بيئته أدرك في الوقت ذاته أن هناك علاقات تربط بين الظاهرات الكائنة في الوسط الذي يعيش فيه، هذه العلاقات Relationships والارتباطات Correlations شكلت منذ وقت بعيد الأساس النظري لعلم الجغرافيا المعروف بالعلاقات المكانية Spatial Relationships .

وحتى يصل الإنسان البدائيّ إلي ذلك التكوين التصوريّ كان عليه أن يمر بمستويات من الإدراك يتصاعد وعيه فيها من الحسي إلي المطلق، حيث كان يعايش الطبيعة الجامدة والحية، الساكنة والمتحركة، فيري الظاهرات المحيطة به في أبعاد متناهية ممتدة ما بين السماء وأجرامها، وقمم الجبال من ناحية، وقاع البحر من ناحية

أخري، ولم يكن الإنسان يعيش بفكره مع المكان في حد ذاته فحسب، بل كان يعيش فيه أحداثه التي تأتى من مصادر معلومة أو مجهولة كالمطر والبرق والرعد، ولم يكن من الضروري أن يفسر هذا الإنسان الظاهرات علي أساس عقلانيّ، بل كان يكفى أن يقوم هذا التفسير علي أساس ذهنيّ يشير الأفكار التي تهتدي إلي تعليل ما للظواهر الكونية والظاهرات الطبيعية.

وقد كانت للشعوب البدائية نظريات عديدة عن طبيعة العالم وكيفية نشأته، فهذه الشعوب التي عرفت بيئاتها المحيطة بها معرفة جيدة وأضافت إليها بعض المعلومات عن المناطق المجاورة لتلك البيئات، كانت لها ملاحظاتها عما يحيط بها من ظاهرات طبيعية، وتفسيرات لهذه الملاحظات تتناسب مع مستواها الفكري الذي بلغته.

وقد بدأ علم الجغرافيا عندما بدأت المشاهدة والملاحظة كوصف للأرض ومظاهرها أو للكون وظواهره، ومن ثم يعتبر علم الجغرافيا أقدم العلوم جميعا لأنه نشأ مع بداية نشأة الإنسان علي سطح الأرض، ولهذا فإن أقدم المدونات عن اهتمام الإنسان بطبيعة العالم الطبيعي من حوله تشمل تأملات وملاحظات جغرافية.

ولم يقف طموح الإنسان الفكري ورغبته في المعرفة عند حد التعرف علي مواقع وأشكال الظاهرات المكانية بل تعدى ذلك إلي محاولة التفسير «تفسير النشأة» و«تفسير الشكل Form» ، ثم تطور الأمر إلى محاولة تفسير كيفية التوزيع Distribution ، وقد اختلفت درجة دقة التفسير حسب المستوى الفكري الذي بلغه الإنسان، فقد اعتمد هذا التفسير كثيراً علي الاجتهادات الشخصية، والحكايات المروية التي حفلت بالعديد من الأساطير والخرافات منذ بدأ الفكر الجغرافي.

ويعتبر تحديد نقطة بداية الفكر الجغرافي مسألة وثيقة الصلة بالمرحلة التي حاول

الإنسان فيها ولأول مرة أن يتأمل الظاهرات المحيطة به ويدركها، ويتطلع فيما حوله ليبحث عن إمكانات البيئة التي يعيش فيها، من أجل الملائمة والتكيّف بين متطلبات حياته وطبيعة الموضع الذي يعيش فيه، ويمكن تلمّس بدايات تطور الفكر الجغرافي بصورته البدائية التي تتناسب مع تطور الفكر الإنساني في الجهود التي قام بها إنسان الحضارات القديمة، وذلك لكون الفكر الجغرافي قديم قدم التاريخ.

ففي العصور القديمة كان الإنسان يعيش على حرف الجمع والالتقاط والقنص والصيد، بصورة تشبه طرق حياة بعض الجماعات البدائية الموجودة في وقتنا الحاضر، وقد لجأ الإنسان البدائي في البداية إلى رسم بعض الأشياء التي يشاهدها على الجلود وعلي جدران الممرات والكهوف لمعرفة الطرق التي يسلكها، وبذلك أخذ يمثل بعض هذه الظاهرات عن طريق نقشها أو رسمها على ما يتوفر لديه من خامات.

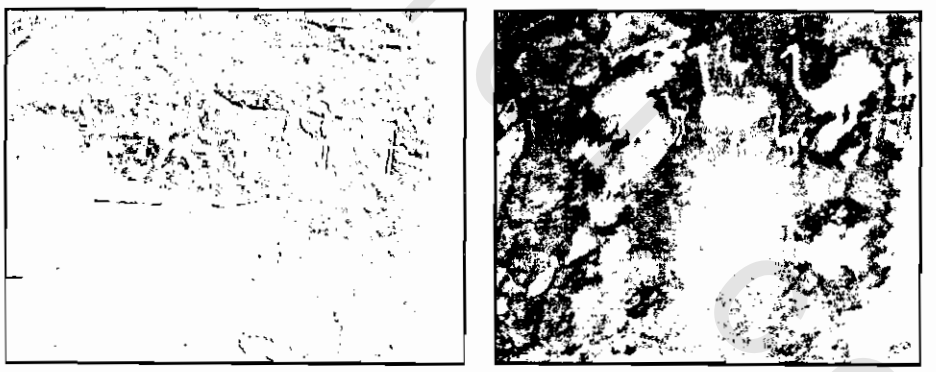

شكل رقم (١) بعض الرسوم البدائية للإنسان القديم

وفي العصر الحجري، وهو العصر الذي أصبح فيه الإنسان لأول مرة منتجاً للغذاء بعد إن كان مستهلكاً له، بدأ هذا الإنسان ارتباطه بالأرض عن طريق الزراعة واستئناس الحيوان، وارتقى بفكرة الجغرافي اقتصادياً لوفرة الفائض لديه، وبدأت فكرة

الاقتصاد تغيّر حياته، حيث كان يجب عليه معرفة المواسم والفصول الزراعية والمناخية، لارتباط حياته بها، ثم بعد ذلك تطوّر لديه الفكر الجغرافي وأخذ يتطلع إلى السماء فرصد النجوم وحركاتها والشمس وشروقها وغروبها والقمر وظهوره واختفائه.

وقد لاحظت الشعوب البدائية تقلب الليل والنهار واختلاف الفصول ودوران النجوم في السماء فحاولت تفسير ذلك عن طريق التخيّل، مما أدى إلى نشأة الخرافات والأساطير التي ظلت تمثل جزءاً من الفكر الجغرافي خلال مراحله التطورية المتعاقبة.

سكان «بولينيزيا» القدماء

كان لدي سكان منطقة «بولينيزيا» القدماء نظرية فيما يختص بخلق الكون مضمونها أن الأرض والسماء انفصلتا عن بعضهما بفعل أطفالهما، وهذه النظرية تشبه اعتقاد الشاعر الإغريقي «هزيود Hesiod» (٧٠٠ ق.م) بأن الأرض بنفسها أنتجت السماء والمردة الجبابرة Titans، بما في ذلك المحيط ، ثم قام هؤلاء المردة بالتفريق بين أبويهما.

وكانت إحدى القبائل الأسترالية في تفسيرها لاختفاء الشمس ليلا تعتقد بأن قرص الشمس يهوي في فجوة واسعة بالقرب من بحيرة «آير Eyre» ثم تسير تحت الأرض في اتجاه الشمس، وقد اعتنق المصريون القدماء أيضا ذلك الاعتقاد، عندما آمنوا بأن الشمس تغيب تحت الأرض ليلا لتنير عالم الأموات، وهذا عكس ما اعتقده الشاعر الإغريقي «هوميروس Homer» (ق ١٣ ق.م) عندما قال بأن الشمس في حركتها تحت الأرض لا تضيء العالم السفلي أو وادي الظلمات Tartasus، وهناك من القبائل من اعتقد بأن الشمس تسبح فوق مجرى المحيط فيما بين منطقة «الهسبريد» Hesperides (حيث جنات الفاكهة الذهبية) وحتى تبلغ بلاد الإثيوبيين الشرقيين حيث تكون عربتها في انتظارها.

وقد بدأ اهتمام الإنسان بالظواهر الفلكية قبل أن يهتم بالأرض التي يعيش

عليها، إذ أنه لاحظ الشمس والقمر والنجوم في كل يوم فأخذ يتساءل محاولاً تفسير ما يرى وتعليله.

قدماء المصريين

تأثرت المعرفة الجغرافية عند قدماء المصريين بنهر النيل وفيضانه، الذي أوحي إليهم بفكرة البعث والحياة بعد الموت، كما تأثرت تلك المعارف بما اعتقدوا أنه قوة علوية أو علّة خفيّة تحرّك فيضان النيل وتتحكم فيه، لذلك قدّسوا النيل وعبدوه، بعد أن اعتبروه إلهاً أطلقوا عليه اسم «حابي»، وقد استمد المصريون القدماء اعتقادهم بالبعث والنشور من ملاحظتهم لحركة الشمس الدورية شروقاً وغروباً ـ تلك الشمس «آتون» التي اعتبروها رمزاً للإله «آمون» ـ وارتباط شروقها باستيقاظ الكائنات الحية بعد نومها، وظهور الضوء بعد الظلام. وقد تحددت المعارف الجغرافية لقدماء المصريين في موضوعات ثلاثة هي:

الأول: ملاحظة الظواهر الفلكية ومحاولة تفسيرها:

ويرجع اهتمام المصريين القدماء بالأجرام السماوية إلى أبعد العصور من قبل أن يبدأ التاريخ، وقد ساعدهم على ذلك صفاء سمائهم، ويقال إن «توت» الطبيب الحكيم المصري وضع تقويماً على أساس السنة الشمسية أي ٤/ ١ ٣٦٥ يوم، كما قسّم الشهر المكوّن من ثلاثين يوما إلى ثلاثة «دياكين» وقسّم كل «ديكان» إلى عشرة أيام، وقسم اليوم الواحد إلى عشر ساعات، وكل ساعة مائة قسم، ثم قسّم كل قسم إلى مائة قسم أصغر. ويرجع تاريخ هذا التقويم إلى عام ٤٢٣٦ ق. م، كما قسّم المصريون القدماء فصول السنة إلي ثلاثة فصول هي: فصل الفيضان، وفصل خروج النبات، وفصل الجفاف والحصاد.

ولا يقارن دور المصريين القدماء في علم الفلك بدورهم في علميّ الهندسة والطب، حيث اقتصر بحثهم في الفلك على حساب الزمن من أجل معرفة فيضان

نهر النيل وانحساره، وعلي معتقداتهم الدينية كسير الشمس وكسوفها، وقد لاحظوا توزيع النجوم غير المنتظم في السماء، وعرفوا الأبراج، وبدأوا حساباتهم الفلكية بمنازل القمر، لكنهم اكتشفوا أن فيضان النيل مرتبط بالتقويم الشمسي، لذا قاموا بحساباتهم بالتقويم الشمسي وقسّموا السنة إلى اثني عشر شهراً كل شهر ثلاثون يوماً، وزادوا خمسة أيام في السنة واعتبروها أعيادا لآلهتهم، وتشير بعض الكتابات القديمة إلى معرفة المصريين القدماء للمزولة (الساعة الشمسية).

وكان للمصريين القدماء نظريتهم الخاصة في خلق الكون ومضمونها أن الوجود كله بما فيه الأرض والسماء قد نشأ من «المحيط الأزلي» الذي يعتبر بداية لكل خلق، فقد ولد إله الشمس ـ آمون رع ـ من زهرة لوتس كانت طافية فوق مياه ذلك المحيط، باعتبار أن الماء هو أساس كل شيء وأصل كل خلق، وأن هذا الإله ارتفع بارزاً من المحيط وقام بخلق إله الهواء ـ شو، ثم قام إله الهواء هذا بفصل أخته إلهة السماء ـ نوت ـ عن أخيه إله الأرض ـ كب.

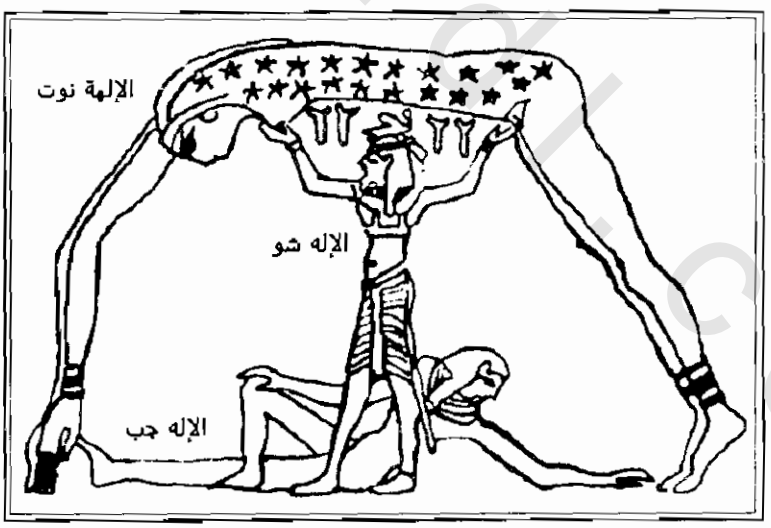

شكل رقم (٢) عملية خلق الكون عند قدماء المصريين

ومن أهم ملاحظاتهم الفلكية أنهم قسّموا دائرة الأفق إلى ٣٦ قسماً كل منها يضم

عشر درجات، واهتموا بالنجم «سيروس» أو الشعري اليمانية عند العرب، والذي أسموه «مُجلب الفيضان»، وكانت السنة عندهم تبدأ يوم شروق ذلك النجم في التاسع من شهر يوليو كل عام. وقد شكل فيضان النيل أهمية كبري في الحياة المصرية القديمة. وكان ذلك الفيضان يحدث بصورة دورية في أواخر فصل الصيف، ويقوم بتخصيب الأرض بالمياه اللازمة لما قام الفلاحون بزراعته طوال العام في انتظار تلك المياه. وقد ارتبط هذا الفيضان بطقوس شبه مقدسة، حيث كان المصريون القدماء يقيمون احتفالات وفاء النيل ابتهاجا به. كما قاموا بتسجيل هذه الاحتفالات في صورة نحت علي جدران معابدهم ومقابرهم وأهرامهم لبيان مدي تقديسهم لهذا الفيضان.

الثاني: الرحلات الداخلية والخارجية

وقد تفوّق المصريون القدماء في الرحلات البحرية، التي اعتمدت علي هبوب الرياح الشمالية الغربية طول العام، عكس اتجاه تيار مياه النيل، وعلي توفر نبات البردي والأخشاب المستوردة من ساحل الشام، ولعل أهم رحلاتهم البحرية رحلة «سنفرو» إلي بلاد فينيقيا عام ٣٢٠٠ق.م لجلب الأخشاب اللازمة لبناء المراكب والمعابد، ورحلة «حتشبسوت» إلي بلاد بونت لجلب البخور والصمغ واللبان ومتطلبات الطقوس الدينية.

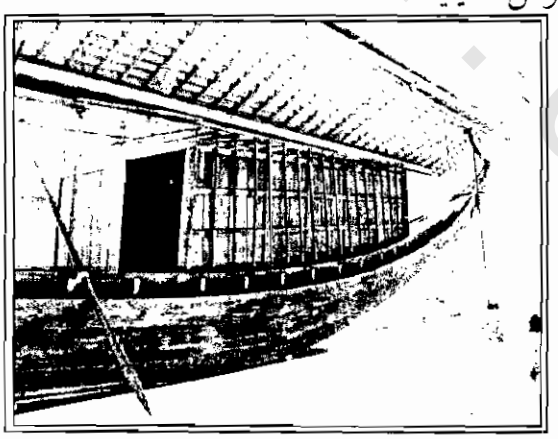

شكل رقم (٣) مراكب الشمس الفرعونية

الثالث: الاهتمام بما يحيط بها من مناطق

وقد تجلي اهتمام المصريون القدماء بأرضهم وما يحيط بها من مناطق في معرفتهم بثلاثة مناطق قديمة هي: بلاد «بونت» (Punt)، التي لا يعرف بالضبط موقعها الجغرافي، ولكن بعض المؤرخين يقولون أنها كانت تضم الأراضي الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأحمر، ويشير كثير من كتاب التاريخ إلى أن بلاد «بونت» هي المناطق التي تطل علي البحر الأحمر أو خليج عدن، جنوبي شرق مصر بعد السودان، وأغلب الظن أنها اليمن أو الصومال، وقد سجلت الملكة الفرعونية «حتشبسوت» Hatshepsut (ق ١٥ ق.م) حملتها عليها فوق جدران معابدها بالدير البحري بالأقصر، وكان قدماء المصريين علي صلة تجارية بها، حيث كانوا يتبادلون السلع، فكانوا يجلبون منها الذهب والبخور للمعابد، والعاج والأبنوس والنسانيس واللبان، وقد استمرت العلاقات التجارية بين مصر و«بونت» طوال العصرين الإغريقي والروماني.

أما المنطقة الثانية فهي بلاد «كوش »Kush، وقد احتلها المصريون خلال حكم الأسرة الثالثة، وتضم بلاد النوبة، غير أن مدى اتساع هذه المملكة وأهميتها اختلفا على مدى الزمن، فيضيق مداها أثناء ضعف الحكم المصري، ليتسع باتساع نفوذه. وكان قدماء المصريين يطلقون اسم بلاد كوش علي المناطق الممتدة من جنوب أسوان وحتي الخرطوم، حيث يعيش شعب النوبة، وحيث قامت ممالك امتد نفوذها علي وادي النيل مروراً بمصر، ثم الأردن وفلسطين وحتى جنوب تركيا شمالاً.

ويرجع تاريخ النوبة للعصر الحجري في عصر ما قبل التاريخ. ففي منطقة الخرطوم وجدت آثار حجرية ترجع لجنس أفريقي يختلف عن أي جنس أفريقي موجود حالياً.وفي منطقة «الشخيناب «شمال الخرطوم وجدت آثار ترجع للعصر

الحجري الحديث، من بينها الفخار والخزف، وكان النوبيون الأوائل يستأنسون الحيوانات. وفي شمال وادي حلفا بمنطقة «خور موسى «وجدت آثار تدل علي أن الإنسان في تلك الفترة كان يعيش علي القنص وجمع الثمار وصيد الأسماك.وكانت الصحراء في ذلك الوقت منطقة سافانا أصابها الجفاف في فترة لاحقة، حيث كان النوبيون يمارسون الزراعة.

أما بلاد «يام» Yam فهي المنطقة الثالثة التي عرفها المصريون القدماء، ولا يعرف مكانها على وجه الدقة، غير أن بعض المؤرخين معتمدين على الكتابات المصرية القديمة يؤكدون بأنها كانت تقع إلى الغرب من نهر النيل، وأنها تكوّن الجزء الغربي من أرض كوش، التي شملت مرتفعات كردفان ودار فور في السودان، وقد كانت هناك تجارة رائجة بين تلك المملكة ومصر، وكانت أهم عناصر هذه التجارة هي الرقيق والعاج والصمغ والبخور.

وقد اهتم المصريون القدماء أيضاً بمناطق ساحل شرق البحر المتوسط وبالحضارات المجاورة لهم. وارتبطت حضاراتهم برسم الخرائط المختلفة لمواقع أهم المناجم والمسالك المؤدية إليها وخاصة الذهب، ولعل من الأسباب التي حالت دون العثور على عدد من الخرائط المصرية القديمة أن معظم هذه الخرائط كانت ترسم على ورق البردي الذي يتلف بسرعة بخلاف الفخار الذي استخدمه البابليون، وعلى أية حال فقد وجدت خريطة لا تزال موجودة في إيطاليا رسم عليها أحد مناجم الذهب في بلاد النوبة.

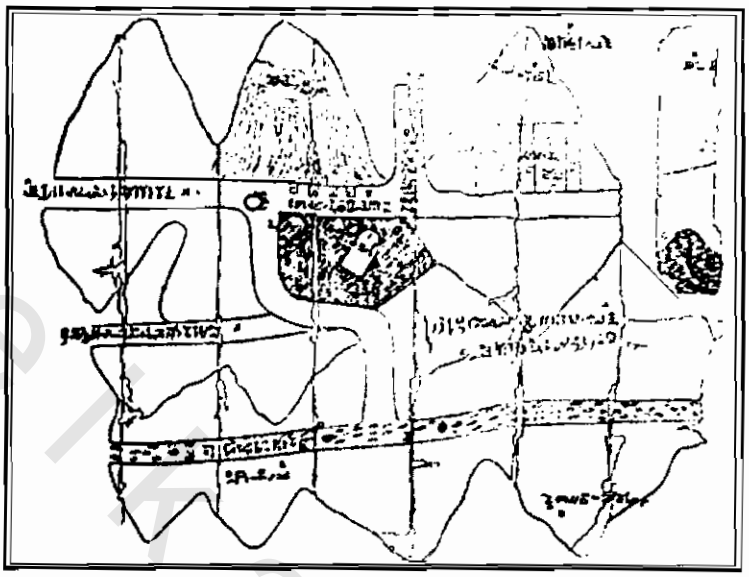

شكل رقم (٤) خريطة لمنجم مصري قديم

البابليون

من الصعوبة بمكان معرفة دور البابليين واكتشافاتهم لقلة المصادر التي سجلت أعمالهم ، ولكن المعروف عنهم التفوق في الرياضيات وخاصة علم الجبر وربطهم بين الفلك والمسائل الحسابية مما جعل دراساتهم الفلكية متقدمة لارتباط الرياضيات بالفلك.

وقد اهتم البابليون بالفلك اهتماماً كبيراً فنبغوا في الأرصاد الفلكية وبنوا الأبراج المدرّجة لمراقبة النجوم، وقسموا الشهر إلى أسابيع، على أنهم كانوا يجعلون اليوم الأول من كل شهر هو بداية الأسبوع الأول لذلك الشهر، والبابليون هم كذلك أول من قسّم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة، كما قسموا الساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية، وقد حاول البابليون تفسير ظاهرة الفصول الأربعة لكنهم لم يتوصلوا إلى ذلك.

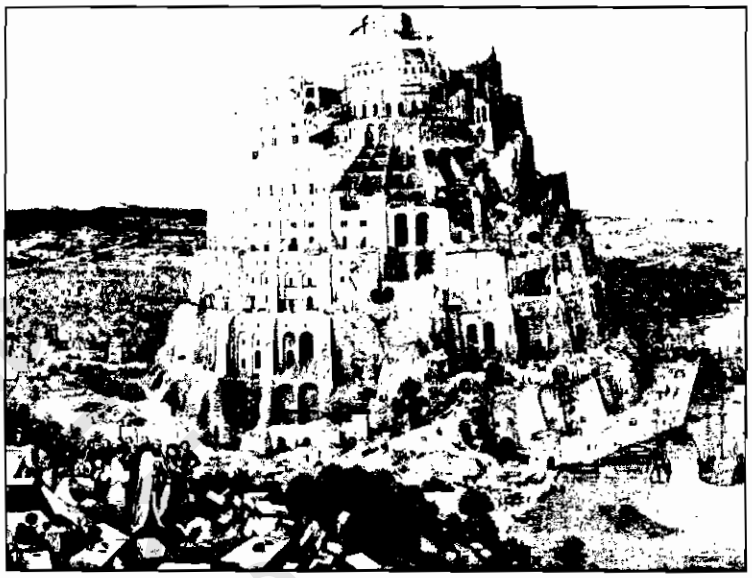

شكل رقم (٥) برج بابلي مدرّج

وقد خالف البابليون المصريون القدماء فاستخدموا السنة القمرية لا الشمسية، واستعملوا شهورًا بلغ عدد أيامها تسعة وعشرين وثلاثين يوماً واعتبروا السنة اثنا عشر شهراً وكانت السنة عندهم ٣٥٤ يوماً، وأضافوا شهراً زائداً كل ثمان سنوات للموافقة بين السنتين الشمسية والقمرية واستخدموا النظام السداسي فقسموا اليوم إلى أربعة وعشرين يوما والساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية وقسموا الدائرة إلى٣٦٠ درجة وجعلوا الأسبوع سبعة أيام تمثل الكواكب السبعة السيارة المعروفة عندهم ووضعوا الأشهر البابلية والمستخدمة إلى يومنا هذا وعرفوا الساعات الشمسية والمائية وحسبوا دوران القمر وقاموا بأرصاد لمعرفة الطقس وحددوا البروج الوهمية ورصدوا الكثير من النجوم والكواكب لعبادتهم لبعضها واستخدموا النظريات العلمية والرياضية في إثبات دوران القمر وكانت لهم معرفة بالنسب المثلثية، وحددوا كذلك دورة الزهرة وعطارد ومن أعظم الآثار التي تركوها حدائق بابل المعلقة والتي تعتبر من عجائب الدنيا السبع القديمة.

وقد وضع البابليون بياناتهم عن المناطق التي عرفوها في قوائم أهمها قوائم «سرجون الأكادي» Sargon of Akkad (ق ٢٦ ق.م) التي تضمنت معلومات عن الطرق، كما اهتموا بتحديد موقع بلادهم بالنسبة لما يجاورها من بلاد، واعتقدوا أن الأرض مقسمة إلي أربعة مناطق هي «عيلام» جنوب بابل، و«أكاد» في الشمال، و«سوبارتو» في الشرق، و«أمُرّو» في الغرب.

وقد عُد البابليون أول الجماعات التي قامت برسم خرائط تفصيلية لسهل العراق وذلك قبل أربعة آلاف قبل الميلاد، وقد ميز هذه الخرائط وجود مقياس للرسم، كما صوروا العالم على هيئة قرص مستدير وجعلوا بابل ركيزة هذا القرص الذي أحاطوه ببحار لانهاية لها، وفي أطرافه جزر يقطنها أقوام خيالون، وتشير المصادر التاريخية إلى أن البابليين هم أول من وضع أسس فن صناعة الخرائط، إذ قام سكان العراق القدامى بتمثيل ظواهر سطح الأرض ومعالمه الطبوغرافية على ألواح مستوية من الطين، واستخدموا الرموز الاصطلاحية في رسم ظاهراتها.

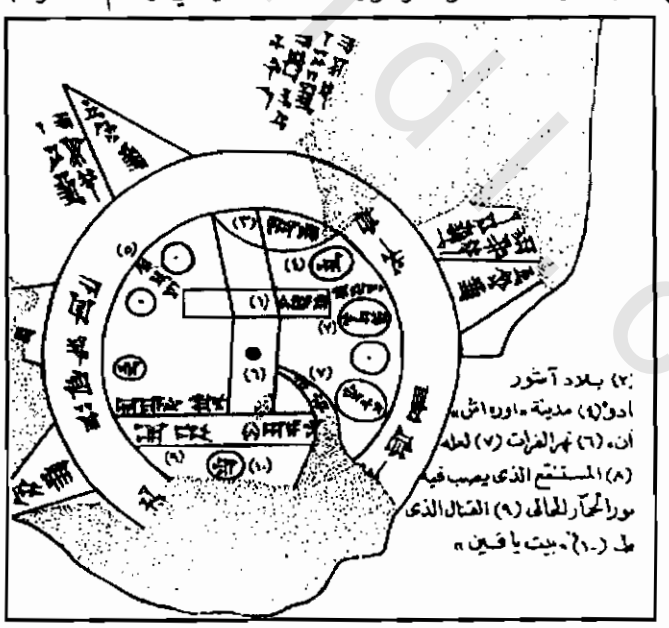

شكل رقم (٦) أقدم خريطة في العالم

واهتم البابليون كذلك بخرائط تنظيم الري وتثبيت ملكيات الحقول الزراعية والقرى، وقد وجدت إحدى هذه الخرائط التي يزيد عمرها علي ٣٥٠٠ سنة منقوشة على لوح من الطين وهي الآن محفوظة في متحف جامعة بنسلفانيا الأمريكية، وللبابليين دراسات في رصد النجوم والكواكب، وانتقلت فكرتهم عن العالم الذي مثلوه على شكل قرص مستدير تحيط به المياه إلى الإغريق ثم الرومان، وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى العصور الوسطى.

أما الفينيقيون (الكنعانيون) فقد عاشوا في منطقة ساحل البحر المتوسط الشرقي فيما بين طرسوس شمالاً وجبل الكرمل جنوبا (فيما بين لبنان وفلسطين حالياً) وقد استعانوا بالنجم القطبي كدليل ومرشد لهم في أسفارهم البحرية بالليل، وقد نشأت الحضارة الفينيقية حيث تتوفر أخشاب الأرز، وحيث ساعدت ظروف البيئة الجغرافية على تكوين شعب بحري استطاع أن ينشر حضارته على طول ساحل أفريقيا الشمالي، ويكّون حضارة مهمة لم يعطها التاريخ حقها، رغم أنها امتدت إلي شمال إفريقيا «قرطاجنة» وصقلية وسردينيا ووصلت إلى الرأس الأخضر والى أجزاء عديدة من قارة أوربا، منها الساحل الجنوبي لبريطانيا حيث حصلوا علي القصدير.

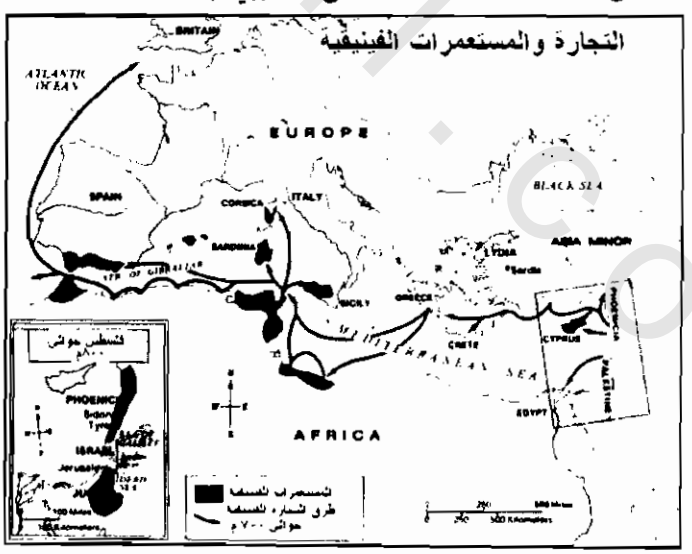

شكل رقم (٧) مستعمرات الفينيقيين وطرق تجارتهم

وقد نشطت الملاحة في فينيقيا نتيجة اعتباراتٍ عدّة منها: صعوبة التّنقّل البرّي، ووفرة الخشب، وملاءمة الموقع الجغرافي بالنّسبة للعالم القديم، وعزّز الفينيقيّون ملاحتهم بنشاطات خاصّة، كتطوير صناعة السّفن، وحسن اختيار مواقع المرافئ، وتسخير المعارف الجغرافيّة والفلكيّة، وأخيرًا إنشاء المستعمرات لتكون أداة اتّصال.

غير أن الفينيقيّون لم يعرفوا استخدام البوصلة، ولكنّهم اهتدوا إلى الشّمال بواسطة النّجم القطبي، وقد سمّاه الإغريق باسمهم أي «النّجم الفينيقي»، وشرعوا في التّنقّل على طول الشّاطئ، لا يغامرون في عرض البحر، وتجنّبوا المغامرة في اللّيل حتّى لا يضلوا الطريق، وجعلوا مدنهم محطّات تجاريّة، بين الواحدة والأخرى مسيرة نهار، واستفادوا من الجزر المنتشرة في بحر إيجه، وطافوا بجميع مناطق الأرخبيل الإغريقي، أمّا الوصول إلى مصر في الجنوب فقد تمّ على مراحل، حيث لازموا الشّاطئ حتّى وصلوا إلى الدّلتا.

وقد نظم الفينيقيّون عدة رحلات بحرية استكشافيّة، إحداها كانت لحساب الفرعون المصريّ «نِخَاوْ» Necho (٦١٠ـ٥٩٤ ق.م)، ويخبرنا «هيرودوت» Herodotus (٤٨٤-٤٣٦ ق. م)« بأنّ هذا الفرعون قد طلب من الفينيقيّين حوالي عام ١٦٠٠ ق.م، أن يقوموا برحلة تكفل هو بنفقاتها، انطلقت من شواطئ البحر الأحمر، واستمرّت ثلاث سنوات، ودارت حول أفريقيا «ليبيا» في ذلك الوقت، وعادت عن طريق البحر المتوسّط إلى مصر. وعندما وصلت مراكب الرّحلة العشرة غربيّ الشّاطئ الأفريقي، تمكّنت العاصفة من إحداها ففصلته عن سائر المراكب. وحملتها التيّارات المائيّة والرّياح التّجاريّة حتّى شرق البرازيل.

وفي رّحلة أخرى قام بها أحد مواطني قرطاجة، واسمه «حَنُّون» كانت الغاية اكتشاف أسواقٍ جديدة. وقد سار «حنّون» في عكس اتّجاه رحلة «نِخَاوْ»، وثمّة رحلة ثالثة قام بها مواطن آخر من قرطاجة أيضاً هو «حَمْلَكُن». فعبر مضيق جبل

طارق، واستمرّ في سيره أربعة أشهر وصل في نهايتها إلى جنوبي إنكلترا. وقد تمّت هاتان الرّحلتان القرطاجيّتان ما بين عاميّ ٤٥٠ و٣٥٠ ق.م.

وفي الحوض الشّرقي من المتوسّط، أحاط الفينيقيّون قبرص بسلسلة من المخازن وذلك لغناها بالنّحاس والحجارة الكريمة، ثمّ لوفرة حبوبها وخمورها وزيتونها، ولموقعها الوسط بين عالمين. وتصدّوا للمنافسة الإغريقيّة التي اشتدّت خلال القرنين الرّابع والثّالث ق.م، أمّا في آسيا الصّغرى فقد اهتمّوا بمناطق « كيليكيا» و«طرطوس» خاصّة، ومن هنالك وصلوا إلى جزيرة «رودس» المواجهة للشّاطئ.

ولم تكن قرطاجة أوّل مستعمرة أُنشئت في منطقة شمال أفريقيا، بل سبقتها مستعمرة«يوتيقا» (سنة ١٠٠ ق.م) على نهر المجرّدة، و«زارتيس» (بيزرتا)، وسُمّيت قرطاجة (المدينة الحديثة) تمييزًا لها عن جارتها «يوتيقا» (المدينة العتيقة)، وقد شيّدت حوالي ٨١٤ ق.م. لتكون صلة الوصل بين صور والمستعمرات الفينيقيّة. وقد اختار لها الصّوريّون موقعًا استراتيجيًّا بين الحوضين الشّرقي والغربي للمتوسّط. لكونها تتّصل برًّا بالقارّة الأفريقية، وبحرًا بمختلف المحطّات والمخازن والمستعمرات الفينيقيّة في الغرب. ولم يخطر لصور يومًا بأنّ هذه المستعمرة التي بَنَتْها، ستنافسها فيما بعد. وقد برزت عظمة قرطاجة يوم أخضع الآشوريّون فينيقيا

ولمّا هدم «نبوختنصّر» الكلداني Nabukhdinosor (ق ٦ ق.م) صور البرّيّة، لم يعد لدى الفينيقيّين مدينة تفوق قرطاجة بعظمتها. فتبنّت هذه المستعمرة العملاقة سياسة صور وصيدون وكانت استمرارًا لهما. وسعت للتّوسّع في الحوض الغربي للمتوسّط حتّى اصطدمت بالإغريق. فنشبت حربٌ بينهما سنة ٥٥٠ ق.م واستطاعت قرطاجة أن تكسب الرّومان إلى جانبها.

وقد مارس الفينيقيّون التجارة مع بلاد «أَمُرّو»، وبلاد ما بين النّهرين، وما ورائهما من دول وشعوب. فتشعّبت طرق القوافل في كلّ الاتّجاهات حتّى شملت

بلدانًا تتّصل بفينيقيا بحرًا كمصر وآسيا الصّغرى وقد أسهم الفينيقيون إسهاما كبيراً في تطور المعرفة الجغرافية، حيث ينسب لهم مصطلح «المحيط» وقد جابوا كافة مناطق البحرين المتوسط والأحمر، بل هناك من الباحثين من يعتقد بأنهم اجتازوا المحيط الأطلسي ووصلوا إلي البرازيل.

obeikandl.com

من مراجع الفصل الأول

- أحمد محمد عبد العال ـ الإقليم والإقليمية في الفكر الجغرافي ـ مجلة الجغرافيا والتنمية ـ كلية الآداب جامعة المنوفية ـ العدد الثامن ـ فبراير ١٩٩٧ .

- أحمد محمد عبد العال ـ دراسات في الفكر الجغرافي ـ دار فكرة ـ القاهرة ـ ٢٠٠٩م.

- شريف محمد شريف ـ تطور الفكر الجغرافي ـ الجزء الأول ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ط١ ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ .

- أحمد محمد عبد العال ـ نقاط التجديد في الفكر الجغرافي ـ مجلة المجمع العلمي المصري ـ المجلد الواحد والثمانون ـ ٢٠٠٥/ ٢٠٠٦ .

- جورج تاتهام ـ حتمية البيئة والإمكانية ـ في: جريفث تيلور (محرر) ـ الجغرافيا في القرن العشرين ـ ترجمة: محمد السيد غلاب ـ الجزء الأول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ .

- جورج سارتون ـ تاريخ العلم ـ ترجمة:إبراهيم بيومي مدكور وآخرون ـ الجزء الأول ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ .

- حسن طه النجم ـ دراسة في الفكر الجغرافي ـ عالم الفكر ـ المجلد الثاني ـ العدد الثاني ـ الكويت ـ يوليو/ سبتمبر ١٩٧١ ـ ص ١٠٧ .

- د. ريتشارد هارتشورن ـ نظرة في طبيعة الجغرافيا ـ ترجمة: عبد العزيز آل الشيخ وعيسى الشاعر ـ دار المريخ ـ الرياض ـ ١٩٨٨ .

- رينيه كلوزييه ـ تطور الفكر الجغرافي ـ تعريب: عبد الرحمن حميده ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٨٥ .

- نبيلة إبراهيم ـ المقومات الجمالية للتعبير الشعبي ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ مكتبة الدراسات الشعبية (٦) ـ القاهرة ـ يونيو ١٩٩٦ .

Minshell،R.: The Changing Nature Of Geography-Hutchinson University Library-London-1970.